قبل ١٣ شهراً.. الرواية الأردنية للسابع من أكتوبر وتوابعه

سامح المحاريق

كانت السماء مبلدةً بالغيوم، هذه جملة مجازية تستخدم بكثرة، ولكنها مناسبة للسياق الذي كانت الأردن تعيشه في أيلول ٢٠٢٣، ويمكن القول أن المتاخمة الجغرافية، أو الخبرة التاريخية، أو حتى التقديرات الأمنية، جعلت الأردن يستشعر بصورة مبكرة أن حريقًا سيحدث، وهذه رؤية تحدث بها الملك شخصيًا في أكثر من مناسبة، ووضعها احتمالًا مفتوحًا أمام العالم في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها ٧٨ المنعقدة سنة ٢٠٢٣، ليشير الى أن عام ٢٠٢٣ كان الأكثر عنفًا ودموية بالنسبة للفلسطينيين خلال الخمسة عشر سنة الماضية، كان ذلك قبل السابع من أكتوبر.

في الأسابيع الأخيرة قبل التحرك الواسع لحركة حماس انطلاقًا من القطاع في العملية التي عرفت بطوفان الأقصى، تعرض رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو لضغوطات هائلة في مواجهة المظاهرات الصاخبة المعارضة للمقترحات المقدمة في قانون إصلاح القضاء والتي كانت ستفيد من استقلالية المحكمة العليا وستفرض سيطرة الحكومة على التعيينات القضائية،

الأرض المتحركة التي وقف عليها نتنياهو لأسابيع عصيبة واصراره على عدم الخروج ولو مؤقتًا من المشهد لتجنب تعرضه للملاحقة القانونية بتهم متعلقة بالفساد، جعلت القراءة الأردنية تبني توقعاتها بأن يعمل نتنياهو على تصدير أزمته للفلسطينيين من خلال افتعال أزمة كبيرة، أو تصعيد الاعتداءات على الضفة الغربية، أو عملية عسكرية على قطاع غزة، ولم يكن نتنياهو وحده هو الذي يثير القلق في عمان، فالأردنيون يعرفونه ويدركون دوره السلبي في الوصول إلى هذه الحالة المزرية من استغلاق أي أفق للمضي قدمًا في الملفات العالقة لعملية السلام، ولكن ما كان مؤشرًا خطرًا هو الارتماء بدون شروط أو تحفظات في أحضان اليمين المتطرف، والذي يتشكل من عصبة لا تمتلك الحد الأدنى من الرؤية وتتحرك بنزوات سياسية شعبوية لا يمكن التنبؤ بها من خلال أي نموذج عقلاني.

في ذلك الوقت أيضًا، رصد الأردن استهدافًا واسعًا للسلطة الوطنية الفلسطينية سعى لتقويض قدراتها على إدارة المجتمع الفلسطيني في مناطق الضفة الغربية، وتحدث الملك مع العديد من العواصم المؤثرة في العالم حول هذه العملية الممنهجة، وتحدث بصراحة مع شركاء مثل الألمان، وقرر أن يتحدث بصورة مباشرة موجهًا حديثه للرئيس الفلسطيني في دعوة حقيقية للتصرف لأخذ موقف استباقي من خلال عملية إصلاحية واسعة تمكنه من التواصل البناء مع الشركاء المحتمل تقديمهم للمساندة، خاصة على المستوى الاقتصادي، بما يمكن الفلسطينيين من اتخاذ موقع أفضل نسبيًا أمام التحديات التي ستحدث، فالسؤال الأردني، لم يعد متعلقًا في الأسابيع التي سبقت السابع من أكتوبر حول ما إذا كان الصدام سيحدث أم لا، ولكنه تقدم ليتساءل، متى وكيف وأين؟ وللأسف كانت هذه الأسئلة خارج البنى التقليدية للمفاهيم السياسية والاستراتيجية.

في أنفاق غزة، كانت تدور نفس الأفكار، فالمغزيون المحاصرون والذين أخذت سبل العيش تضيق أمامهم بصورة غير مسبوقة، بدأوا يفكرون في المخرج من ذلك كله، وبدت الكلمة المنتشية التي تحدث بها نتنياهو في نفس الدورة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وكأنها إعلان لتصفية تدريجية للقضية الفلسطينية، وباستثناء الأردن، لم يكن أحد يتحدث عن الفلسطينيين في ذلك الوقت، لأسباب مبدئية وتاريخية، وأخرى، في قراءة لمصالح الأردن والاحتمالات المستقبلية، ولكن الأردن ليس الدولة التي تستطيع أن تمارس أكثر من الضغوطات الدبلوماسية والأخلاقية، وسياستها المكوكية بين مختلف العواصم والحديث المتواصل حول المقدسات الإسلامية والمسيحية (ليس لقيمتها الدينية وحسب، ولكن لإمكانية استغلالها لتفجير الأوضاع من اليمين المتطرف)، والأونروا وغيرها، وإن كانت ذات قيمة كبيرة في ظل صمت دولي وعربي أخذ يزيد من مساحة الإعتام في الأفق أمام الفلسطينيين، إلا أن ذلك، لم يكن ضمن الحسابات القائمة في غزة، لأن حركة حماس وغيرها من الشركاء في منظومة المقاومة، كانت تستشعر أن الضربة ستوجه لهم أولًا، لأنهم معزولون، ولأن قدرتهم على النفاذ إلى مصالح إسرائيلية تبقى نظريًا أقل من الضفة الغربية.

وأتى السابع من أكتوبر بالعملية الواسعة التي شكلت صدمة واسعة على مستوى العالم، وضربة عميقة لهيبة (إسرائيل) ونظرتها لنفسها، وجزء من تراثها السياسي والأمني، وصدمة أخرى لحركة حماس نفسها، فالفعالية الميدانية تجاوزت ما تطلعت له حماس بمراحل، وخلال ساعات، طويت صفحة من تاريخ المنطقة وبدأت أخرى، وأصبحت كل الخبرات القديمة معلقة، فالأولوية لما يحدث ويجري على الأرض.

كان الموقف مطلوبًا من الجميع، وبصورة ملحة، وبدأت حملات الإدانة للأحداث في غزة تتلاحق، وأصبح أي لقاء في الإعلام في الغرب يبدأ بالسؤال: هل تدين حماس؟ وكان السؤال بطبيعة الحال إجباريًا، ولم تكن إجابة الأردن التي أتت بشكل رسمي وغير رسمي مقنعة بالنسبة للغرب، لأنها الإجابة التي رفضت فصل السابع من أكتوبر عن القضية الأوسع، وهي المظلومية الصارخة والفادحة التي يعاني منها الشعب الفلسطيني على امتداد عقود من الزمن، والاستهتار الإسرائيلي المتصاعد بالحقوق الفلسطينية، واستراتيجيات تنغيص حياة الفلسطينيين والتضييق عليهم وسد سبل الحياة الطبيعية أمامهم.

أطلقت إسرائيل حملة تشويه واسعة ضد الفلسطينيين تسعى للشيطنة، والنزول بهم إلى مرتبة حيوانية، ولم تكن النبرة الأردنية مريحة لإسرائيل، وخاصة عندما أتت خارج سياق الأردن الرسمي، ومن شخصية مثل الملكة رانيا العبد الله المعروفة كوجه قيادي نسوي في الغرب منفصل إلى حد ما عند الشخص العادي عن السياق السياسي للدولة في الأردن.

أطلق الأردن عملًا متعدد المستويات، وأتاح هوامش مختلفة، إلا أن ذلك كان يتطلب إسنادًا عربيًا ودوليًا، ولم يتوفر ذلك في المرحلة الأولى، حتى كانت مجزرة المستشفى المعمداني التي تسببت في إلغاء زيارة للرئيس الأمريكي كان يفترض أن يلتقي فيها مع الملك والرئيسين المصري والفلسطيني في عمان، لتبدأ المسألة الإنسانية في غزة تطرح نفسها بقوة على الأرض، ولتكون مبادرة الأردن بالمساعدات الجوية المدخل الذي لحقت به العديد من الدول العربية والأوروبية، وفي مفارقة يمكن أن تعتبر من المضحك المبكي، أو العبثي، شاركت الولايات المتحدة في عمليات إنزال على طائرات سلاح الجو الأردني، وهي الدولة التي يفترض أن تتحرك عمليًا وبجدية من أجل وقف الكارثة الإنسانية في القطاع.

كان على الأردن، ومن منطلق تقديره للموقف، والمعطيات الموضوعة فعلًا على الطاولة أن يلتفت للضفة الغربية، فبدأت عمليات تزويد المدن الفلسطينية بالاحتياطيات التموينية والطبية، وباشرت مستشفى ميداني في نابلس أعمالها لتستوعب جانبًا من الضغط على القطاع الصحي الحكومي في فلسطين، وتحمل الأردن الكثير من التشنيعات التي ذهبت إلى أن طوابير السيارات المصطفة على الجسور هي للاحتلال الإسرائيلي، وبدأت عملية مزاودات واسعة لم يكن الأردن الرسمي في وارد التعامل معها أساسًا، وكأن المطلوب هو وقف الشريان الممتد للضفة الغربية بعد منح الإسرائيليين الذريعة الكاملة لذلك، وهو ما سيطيب لهم بالتأكيد، فالموانئ في حيفا وغيرها جاهزة لاستقبال الواردات الإسرائيلية!

ايجابيًا، فعل الأردن ما في وسعه، وكان يتلقى تقديرًا من معظم الفلسطينيين في الضفة والقطاع، ويتحمل مطالبات غير واقعية من جهات كثيرة، وهو ما يمكن الحديث عنه في الإدارة السلبية للأزمة المتفجرة والمتفاعلة، ولذلك أعاد الأردن خطوط التواصل مع الإيرانيين خارج سلوك الألتراس العربي؛ والأردن لا يرى طهران وكرًا للشياطين، أو بستانًا للملائكة، ويعرف أنها دولة ذات مصالح ومطالب، وظهر الأردن غير معني بالتفاعلات التي تحاول أن تسحب بؤرة الاستقطاب الرئيسية من الأوضاع في فلسطين تجاه مركزة أو تجاهل ايران، فعملت السياسة الأردنية على التعامل مع التحديات من موقع رد الفعل القائم على عاملين، الأول، وجود ثوابت أردنية تتمثل في الوقوف ضد أية حلول أو تسويات تندفع تحت الغطاء العاطفي أو الانتهازي لوضع حلول مثل الوطن البديل، والثاني، الواقعية السياسية والتمييز الضروري بين منطق الدولة ومسؤولياتها والتنظيمات المقاومة وخياراتها، من غير إدانة أو وصاية، وتبدى ذلك في موقف الأردن ومبادرته بإرسال طائرة مساعدة للبنان الشقيق بعد عملية البيجر التي أدت إلى انكشاف واسع وارتباك عميق في صفوف حزب الله اللبناني وصولًا إلى اغتيال أمينه العام حسن نصر الله، في خطوة أظهرت أن الفعل الإسرائيلي ليس له سقف، وأن كل شيء أصبح متوقعًا ووارداً.

يسعى الأردن إلى ضمان تماسك جبهته الداخلية، ويخاطب الكثير من الأطراف للتحلي بالمسؤولية وعدم الانجرار لمساحات المناورة التي يمكن أن تمثل جنيًا للثمار في المدى القصير، ولكن مداها التاريخي ومن خبرة عقود طويلة، يأتي سلبيًا على الأردن ومجمل المنطقة، والدولة في الأردن في بداية المئوية الثانية ما زالت على الرغم من الصعوبات الاقتصادية قادرة على الإمساك بزمام المبادرة، فعلى طائرة وزير الخارجية التي حملت المزيد من المساعدات للبنان، عاد عشرات الأردنيين من بيروت إلى وطنهم وأهلهم.

وظيفة الدولة الأردنية هي المحافظة على المجتمع الأردني بصورة فردية وجمعية، أما وظيفة المجتمع في الأردن، أن يكون ملتحمًا مع قضايا الأمة ضمن الحدود التي يوفرها الوعي التاريخي والخبرة بالظروف الموضوعية، وعمليًا لا توجد تناقضات في هذه المسألة، ولكن المراحل المقبلة، وبعد عدم قدرة أي من الأطراف على الزعم بانتصار واضح، أو رفع راية استسلام نهائية، تبقى الاحتمالات مفتوحة بصورة تستدعي القلق مع رفض الدخول في أجواء التوتر أو التوتير العفوي أو المقصود.

«سيثبت التاريخ أن الرواية الأردنية كانت الأكثر دقةً ودلالةً وعمقًا، وأن الأردن لم يمارس التضليل أو الاستثمار في الكارثة»

«استطاع الأردن أن يلفت انتباه العالم للجرائم الإسرائيلية في الضفة وبدأ عمليات واسعة لتزويد المدن الفلسطينية بالاحتياطيات التموينية والطبية، والمستشفيات الميدانية»

رواية الأردن أن عمان كانت ترى الكارثة في الأفق، ولكنها لا تعرف أين ستهبط الصاعقة من السماء، وأي مدى سيصله الحريق الذي ستشعله، وأن العالم أصر على أن يمارس الصمم والعمم تجاه تحذيرات كثيرة أطلقها الملك عبد الله الثاني شخصيًا أو حملتها الدبلوماسية الأردنية إلى العديد من المحافل والمناسبات، ولكنها اليوم، تحمل إصرارًا على الخروج من هذه الظروف المعقدة بالصورة التي تشكل أفضل ما يمكن التحصل عليه في عالم أدانه الملك وأشار إلى ازدواجيته وإلى تفاقم لا مبالاته وتبلده في خطابه الأخير في الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل أيام غير بعيدة.

سيثبت التاريخ أن الرواية الأردنية كانت الأكثر دقةً ودلالةً وعمقًا، وأن الأردن لم يمارس التضليل أو الاستثمار في الكارثة، وهو ليس بالأمر الجديد بالمناسبة، للأسف، هي نفس الدورة تتكرر بتفاصيل متشابهة، والحمد لله، ما زال الأردن، دولًة، يأمن فيها الإنسان على نفسه وعرضه وماله، وسط كثير من الخراب الذي استجبلته العشوائية والنزوية السياسية في المنطقة.